

وضعية المخطوط العربي في الجنوب الشرقي الجزائري

د. أحمد جلايلي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ورقلة

التمهيد :

إن هذه المداخلة المتواضعة تصنف نفسها في المحور الرابع الموسوم بـ "المخطوطات والمصنفات" وتحديدًا في شق جغرافية المخطوطات ، لملتقى الحركة الأدبية والنقدية في المغرب العربي ، المنعقد في هذه المدينة التاريخية ، مدينة تلمسان . وعنوانها أي : المداخلة بـ "وضعية المخطوط العربي في الجنوب الشرقي الجزائري" وحصرت الحديث في منطقة بني يزقن - في غرداية - لكونها تتوفر على قسط كبير من التراث في الجنوب الشرقي الجزائري ، إضافة إلى اطلاعي ومعرفتي الخاصة ببعض هذه المكتبات ، والهدف الأسمى من هذا العمل هو التعريف ببعض الأماكن التي تأوي جزءًا من مخطوطاتنا وتراثنا ، كما يهدف أيضا إلى طرح اقتراحات بغية حماية تراثنا الآيل إلى الاندثار .

هذا التراث الذي هو وراثته الفكر والحضارة التي أسسها الأسلاف^١ . فهو بشكل عام ذلك المخزون النفسي المتراكم من الموروثات بأنواعها في تفاعله مع الواقع الراهن ، وهو الحصيلة الثقافية التي تتبلور فيها ثقافة وخبرات وحكم أيّة أمة . فهو ليس كيانا معنويا منعزلا عن الواقع ، بل هو جزء من مكونات الواقع ، يوجه سلوك الإنسان في حياته اليومية^٢ .

ذلك الإنتاج الموروث ينقسم باعتبار صُوَرِهِ على قسمين ، هما :

الفضاء المغاربي ——— وضعية المخطوط العربي في الجنوب الشرقي الجزائري

أ- تراث ثابت ومدون : وهو التراث المحفوظ المنقوش في الهياكل العمرانية أو في عناصر الطبيعة المتنوعة من صخور وكهوف ، أو المرسوم في الورق أو الجلود أو السعف أو غير ذلك من أدوات الكتابة التقليدية .

ب- التراث الشفاهي : وهو التراث الذي يتغير ويتجدد ، ويتمثل في الكلمة والنغمة والحركة وتشكيل المادة، أي : في كل ما ينقل مشافهة ، سواء كان قصة أو شعرا أو نغمات موسيقية.

والنوع الأول من التراث الثابت باق لا يغيره الزمن ، إلا بقدر ما تؤثر فيه عوامل الطبيعية ، من أياذ وظروف مناخية مؤثرة ، بينما نجد الموروث الشفاهي أشد عرضة للتغيير والإضافة والحذف أثناء عملية النقلⁱⁱⁱ .

والذي يعنينا هنا في هذه المداخلة هو التراث المادي ، أي ذلك الكتاب المخطوط . وبالأحرى ذلك الكتاب المخطوط في منطقة وادي ميزاب .

ثانيا- ما هو المخطوط ؟

المخطوط هو الكتاب الذي كتب بيد مؤلفه بواسطة أدوات الكتابة التقليدية تماشيا مع تطورات العصر ، أي : هو المكتوب بخط الإنسان ، سواء كان النص المكتوب بخط المؤلف ، أو بخط أحد تلاميذه ، أو مما كان منسوخا عن النسخة الأصل ، أو عن غيرها ، معتمدا فيه الناسخ على القلم و الحبر والورق ، أو معتمدا فيه على أدوات كتابة العصر الذي أنجب النص^{iv} . هو كل كتاب تراثي قديم ، تمت صناعته بأدوات ووسائل تقليدية كما أسلفنا ذكره .

فالمخطوط في عرف المحققين إذن هو النص العربي القديم ، الخاضع للقواعد الإملائية وقوانين الكتابة القديمة ، من حيث الرسم والرموز والتنظيم المعهود .

واهتمامنا بالمخطوط مغل ، لما في ذلك النص العربي العريق من علوم وفنون مختلفة ألوانها ، أو بالأحرى يعود اهتمامنا به لأنه الوعاء الذي حوى صورا

الفضاء المغاربي ——— وضعية المخطوط العربي في الجنوب الشرقي الجزائري

ناصعة خلال الأزمنة الماضية تعبر كلها عن ثقافة أمتنا العريقة وحضارتها الشامخة.

والجزائر هي إحدى القلاع التي احتضنت مشاهد من هذه الحضارات المتعاقبة ، وما تزال مدنها العامرة بالآثار دليلا على رقيها في هذا البلد الأمين .
وإني في هذه المداخلة أركز في حديثي عن التراث ووصفي لمظاهره على منطقة معينة هي منطقة وادي ميزاب ، تلك المنطقة الصحراوية من الجنوب الشرقي الجزائري ، وأعني مدينة غرداية تحديدا، هذه المدينة التي تشرفت باحتضان المئات من المخطوطات العربية في مكتباتها الأهلية ، التي كانت ولا تزال منارات يهتدى بها في أرض صحراوية وعرة ، وتعددت المكتبات في هذه البلدة ، وتتنافس المتنافسون في جمع الكتب والعناية بها ، إلى أن أصبحت مدينة يضرب بها المثل في المحافل الوطنية والدولية ، وبها يقتدى في ظاهرة الحفاظ على التراث، هذا التراث المخطوط الذي يمثل تاريخ المنطقة الناصع ، وحضارتها المتوغة في الزمن البعيد .

ومن أهم المكتبات الأهلية في مدينة غرداية :

مكتبة القطب :

هي مكتبة محمد بن يوسف اطفيش ، التي تحمل معظم مؤلفات الشيخ اطفيش مخطوطة أو مطبوعة ، بالإضافة إلى مؤلفات أخرى لغيره ، منها عشرات المخطوطات ، و المئات المطبوعات ، وتقع المكتبة في وسط حي بني يزقن في مدينة غرداية الجزائرية.

مكتبة الاستقامة :

هي مكتبة أهلية مقرها داخل أسوار بني يزقن ، قريبا من ساحة السوق في مدخل حي بني يزقن الشمالي ، في مدينة غرداية الجزائرية ، لا تقل أهمية عن مكتبة القطب ،من حيث عدد المؤلفات ، ودرجة العناية بالكتاب.

الفضاء المغربي ——— وضعية المخطوط العربي في الجنوب الشرقي الجزائري

مكتبة الحاج صالح لعللي :

وهي مكتبة لآل الحاج صالح لعللي ، ومقرها داخل أسوار بني يزقن ، و قريبا أيضا من ساحة السوق في مدخل حي بني يزقن الشمالي ، في غرداية الجزائرية .

مكتبة بوعيسى الحاج عيسى^٧ :

نود هنا أن نعرض بعض التفاصيل عن هذه المكتبة لما لها أولاً من شأن في حماية المخطوط ، و ثانيا لرفع التتكير الذي يحفها . فما هي أوصاف المكتبة ؟ وماذا في رفوفها من كتب؟

صاحب المكتبة : هو بوعيسى الحاج عيسى بن محمد بن سليمان ، ولد سنة :

1913 م ببني يزقن وفيه نشأ وتعلم ، وعاش في مدينة البليدة تاجرا ، وتوفي سنة :

1990م كان مولعا بجمع المخطوطات ، وخاصة بنسخ القرآن الكريم .

محتوى المكتبة :

تحتوي المكتبة على ثمان وخمسين (58) مخطوطة ، في مختلف العلوم والفنون ، وهي موزعة على النحو الآتي :

- القرآن والتفسير وعلومه .
- علوم الحديث (المصطلح ، الصحاح ، المتون ، الشرح) .
- أصول الدين (العقيدة وعلم الكلام) .
- الفقه (فقه العبادات ، فقه المعاملات ، فتاوى) .
- النايخ (السيرة النبوية،القصص،الأنبياء،السلف،الملوك،التراجم،السير) .
- علوم اللغة (النحو ، الصرف ، البلاغة ، العروض) .
- الشعر والنظم (التاريخ والسير والمدائح والتراجم) .
- الحكم (الوصايا ، المواعظ ، الفلسفة ، التصوف ، الزهد ، الترغيب والترهيب)
- العلوم الطبيعية والرياضيات .

الفضاء المغربي ———— وضعية المخطوط العربي في الجنوب الشرقي الجزائري

- مواضيع مختلفة (تفسير الأحلام ، والرسائل العامة ، وأدب البحث والمناظرة).

وأما تاريخ كتابتها أو نسخها فيختلف من نسخة إلى أخرى ، منها القديم ومنها الحديث .

ولكن الذي استرعى انتباهنا هو عدم معرفة مؤلفي هذه المخطوطات ، إذ بلغ عدد المؤلفين المجهولين ستة وثلاثين (36) مؤلفا مجهولا من ضمن ثمانية وخمسين (58) مؤلفا في فهرس مخطوطات المكتبة.

كما تحتوي المكتبة أيضا على مجموعة كبيرة من المطبوعات التي لا تقل أهمية عن الثروة المخطوطة ، ويبلغ عدد عناوينها : أربعة ومائة (104) عنوان ، موزعة أيضا على مختلف العلوم والفنون .

و خلاصة القول إن المكتبات الأهلية في بني يزقن كانت في الأصل مكتبات أفراد ، ثم ما إن تحولت إلى مكتبات عائلية ، بعد أن آلت إلى الأفراد الورثة إثر وفاة مالكيها الأول ، فأقيم عليها قيمون وضبطت لها أنظمة توقيت ، قصد المطالعة أو الإعارة الداخلية .

كما ينبغي أن نشير إلى أن مؤلفي هذه الكتب في المكتبات المذكورة معظمهم من وادي ميزاب ، أو على الأقل هم إباحيون على مذهب أهل المنطقة الميزابية ، وقلما تجد في رفوفها مؤلفات لغير الإباحيين ، باستثناء أمات الكنب في علوم اللغة ، من صرف ونحو وبلاغة ومعاجم في اللغة والتراجم .

وتمتاز مكتبات بني يزقن جلها بتنصيب قيمين عليها ، هم عادة من أفراد العائلة التي تؤول إليها المكتبة ، تنحصر أعمالهم في السهر على ضبط توقيت محكم لفتحها وإغلاقها حسب أيام الأسبوع ، ويسهرون أيضا على إعارة داخلية لروادها ، ويسعون في بعض أوقاتهم إلى تحديث كتبها المتلفة .

ولكن الذي يعاب على بعض هذه المكتبات هو شعور مالكيها نحو الثروة العلمية المملوكة بالقداسة المفرطة ، مما جعل بعضهم لا يرغب في فتح المكتبة للزوار

الفضاء المغربي ——— وضعية المخطوط العربي في الجنوب الشرقي الجزائري

الأجانب ، مخافة أن تزول الفائدة منها ، أو البركة على حد تعبير أحدهم ، وهو ما يعود سلبا على البحث العلمي في وطننا ، مع أنه هو الغاية والمرجى من إنشاء هذه المكتبات .

هذه صورة مقتضبة عن المكتبة العربية في وادي ميزاب ، وهذا هو حال الكتاب العربي الأصيل في هذه الديار ، وهي وإن كانت في أحسن حال من غيرها ، إلا أننا نشعر باندثار وتسيب وضياع الكتاب ، سواء كان هذا الإهمال مقصودا أو غير مقصود .

- فمن المسؤول عن هذا الضياع ؟

- وما هي الإجراءات التي تتكفل بحفظه ، وتسعى إلى إحيائه ؟

- بل ما هي الغاية من هذا التراث في حياة الإنسان ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة نختصرها في ما يأتي :

إن حماية التراث وحفظه لا يكتمل مهما تضافرت فيه جهود الأفراد أو الخواص ، لذلك يجب أن تتولى الدولة حمايته وحفظه ، بل هي ملزمة بحفظه وحمايته لما لديها من إمكانات هائلة ووسائل ضخمة يمكن بها تحقيق الغرض المنشود ، لذلك يجب على الدولة - إن كانت تحترم شخصيتها و تعزُّز بتراتها - حماية المخطوط بهيئات ثابتة ، وببرامج وقرارات ملزمة ، و بخطط واضحة ومسؤولة ، ومن تصوراتنا لمهام الدولة تجاه المخطوط نذكر ما يأتي :

- أن تؤسس الدولة جهازا إداريا يسهر على حماية و حفظ التراث الوطني
- أن تشيّد مراكز أو مُجمّعاتٍ خاصة بالمخطوط ، مجهزة بوسائل وآلات الحفظ والتخزين الحديثة ، والتي منها على سبيل المثال : أجهزة الإعلام الآلي ولواحقها المختلفة ، من أقراص حافظات ، وكشاف (scanner) ، ومسجل نقاش (graveur) ، وآلات التصوير المتنوعة، قصد تعبئة المكتبات العامة والخاصة بصور مضارعة للمخطوط ، و منها : الصور الورقية ، والمعروفة بـ(الصور المنسوخة) ، وصور الميكروفيلم ، و صور الميكروفتش،و أن يحرص المسؤولون

الفضاء المغربي ———— وضعية المخطوط العربي في الجنوب الشرقي الجزائري

- المشرفون على حماية التراث الوطني بجمع المخطوطات الوطنية - أصولا أو نسخا مصورة - المشتتة والضائعة بين الأفراد والمساجد والزوايا والمدارس والمكتبات الأهلية أو العائلية ، ولو يقتضي الأمر أن تدفع مبالغ مالية تعويضية ، أو مكافآت معنويةً لمالكيها ، تلبية لرغبتهم في حال المطالبة بالتعويض .
- أن يكلف الجهاز المسؤول على حماية التراث الوطني فريقا من المتخصصين والخبراء لحصر المخطوطات وفهرستها فهرسة علمية حديثة .
 - أن تقرر الدولة ضمن برامج التعليم العالي - لاسيما في الدراسات العليا - برنامجا خاصا وإجباريا ، يهدف إلى التعريف بالمخطوط ، وبيان قيمته العلمية والتاريخية والثقافية ، والحاق مناهج علم التحقيق بالمناهج العلمية المقررة .
 - أن تصدر الدولة تشريعا خاصا بالمخطوط ، يضمن بقاءه ، ويعزز احترامه لدى الأجيال المتعاقبة .
- 2 - ندعو المؤسسات الخاصة وكذا الأغنياء - في غياب المؤسسات العمومية - للمساهمة في حماية المخطوط ، جمعا ودراسة وتحقيقا .
- 3 - يجب أن لا يخضع التراث لرؤية أحادية أو قَبْلِيَّة تسيطر عليها المعايير الجمالية والتاريخية ، أي : أن لا يخضع لرؤية ذاتية ترى الأثر المخطوط تحفة مقدسة ، بل ينبغي أن يكون التراث مادة عادية دنيوية ينتفع بها ، كما ينبغي أن يكون إرثا مشتركا بين أبناء الأمة جميعا^{vi} .
- 4 - يجب على المؤسسات العامة والخاصة وكذا الأفراد من أساتذة وباحثين وطلبة استغلال المعلوماتية المعاصرة لخدمة المخطوط الوطني ، ذلك لأن إشاعة المعرفة وإتاحة المعلومة التي يحملها المخطوط الوطني يزيدان من فاعلية المجتمع وحيويته^{vii} ، ويتحقق هذان العنصران ، (أي : الإشاعة والإتاحة) بالخطوات الآتية :
- تعريف المخطوط وإشهاره بواسطة النشر الإلكتروني .

الفضاء المغاربي ——— وضعية المخطوط العربي في الجنوب الشرقي الجزائري

- توظيف الحاسوب واستغلاله في تخزين المخطوط وحفظه ، سواء في الأقراص الصلبة أو الأقراص المدمجة أو الأقراص المرنة .
 - توظيف أجهزة الإعلام الآلي في معالجة النصوص ومقابلتها أثناء عمليتي التحقيق والدراسة .
 - إمكانية معاينة المخطوط عن بعد بواسطة شبكة المعلومات العالمية (الأنترنت) .
- 5 - يجب علينا جميعا أن نساهم في تنمية الوعي بأهمية التراث ، باعتباره موردا ثقافيا ، تتنامى أهميته في عصر المعلومات ، وضرورة مداومة تجديده ، وإعادة قراءته وتوظيفه من منظور يتماشى مع واقعنا وحاضرنا ^{viii} .
- أهمية استغلال وسائل الاتصال الحديثة :
- باستغلال وسائل الاتصال الحديثة (السمعية البصرية) في معالجة التراث وتوظيفه في الحياة اليومية يمكن أن نحقق مساحة كبيرة من الوعي بأهمية التراث في أنفسنا ، ومن خلالها يمكن تحقيق بعض الأهداف الآتية :
- التصدي لظواهر انتزاع سلطة المعرفة، سواء بصورة رسمية أو غير رسمية .
 - التصدي لظاهرة العداء العلمي ، سواء تحت دوافع الجمود الإيديولوجي ، أو ادعاء الحرص على الدين ، أو بدعوى القفز فوق المنهجية العلمية من أجل الإسراع في حركة التنمية ^{ix} .
 - الدعوة إلى الإسلام عن بعد وتنزيهه من الترهيب والتدنيس ، وتقوية الروح النضالية لدى الأقليات المسلمة، وتوعية الجاليات المسلمة المهاجرة ، لأن الدعوة الإسلامية في الأنترنت تواجه دعوة منافسة وشرسة على الإسلام من قبل مؤسسات دينية ، لها تنظيمات عالمية ، رسمية وغير رسمية، في الوقت الذي نعاني فيه نحن قصورا وجمودا في هذا المجال^x.

الفضاء المغربي ——— وضعية المخطوط العربي في الجنوب الشرقي الجزائري

- التصدي لأزمة اللغة العربية ، تنظيرا وتعلما واستخدما ، باعتبار اللغة هي أفضل وسائل التكنل العربي والمدخل الطبيعي إلى إحداث النهضة الثقافية المطلوبة .^{xi}

وعلى الباحثين في الإعلام الآلي وخبراء المعلوماتية أن يضعوا على عواتقهم جزءا من مسؤولية حماية التراث ، ومن وجوها مراعاة ما يأتي :

-المسؤولية في أمانة تقديم المعلومات : لأن تكنولوجيا العصر فرضت علينا أن نضع تراثنا في أيديهم وقراراتهم ، دون أن ندري شيئا عن مصادر معلوماتهم ، وعن مدى وجاهة آرائهم ، وأمانة أساليبهم في عرض المعلومات .^{xii}

- التأكد من نزاهة آلة البحث : ويقصد بذلك عدم انحيازها في انتقاء مصادر المعلومات ، أو مضامين معينة لتشويه الحقائق ، أو بغرض الانحياز إلى فئات معينة ، أو التحامل ضدها ، فعلى سبيل المثال : يمكن لكشاف بحث المعلومات أن يعطي الأولوية للموضوعات التي تخدم ديانة ما على ديانة أخرى ، أو يعطي الأولوية لوجهة نظر أمة على أمة لأسباب ما .

- الأمانة العلمية : إذ يستغل بعض الباحثين تطاير المعلومات والأفكار المتبادلة عبر الأنترنت ، فينسبها إلى نفسه دون مراعاة لأبسط قواعد الأمانة العلمية والملكية الفكرية .

هذه أهم الملاحظات التي يمكننا أن نسجلها في هذا المحفل العلمي العظيم حول وضعية المخطوط العربي في الجنوب الشرقي الجزائري ، وبخاصة في وادي ميزاب ، نشير من خلالها إلى أهمية المخطوط التراثي في حياة الإنسان ، ونشير أيضا إلى ما قدمته أيادي الإنسان المعاصر لهذا المخطوط من حسنات و إلى ما رسمت عليه من عاهات و سلبيات ، في الوقت الذي تداهمننا فيه الثقافة الغيرية ، ونحن أمامها وقوفا ملأى بالعجب .

الفضاء المغاربي ——— وضعية المخطوط العربي في الجنوب الشرقي الجزائري

الهوامش

- ⁱ - يراجع : التراث العربي الإسلامي ، ص : 16،17.
- ⁱⁱ - التراث الموسيقي العربي وإشكالية الأصالة والمعاصرة ، د/ سميحة الخولي ، مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ، المجلد : 25 ، العدد الأول ، سبتمبر ، 1996 ، ص : 118 .
- ⁱⁱⁱ - التراث الموسيقي العربي وإشكالية الأصالة والمعاصرة ، ص : 118 .
- ^{iv} - لسان العرب ، مادة (خطط). ويراجع : أضواء على البحث والمصادر ، د/ عبد الرحمن عميرة ، (ط2) ، مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، 1981م. ص: 61،74.
- ^v - فهرس مخطوطات مكتبة بوعيسى الحاج عيسى ، جمعية التراث ، القرارة ، غرداية ، 1415هـ/ 1995 م .
- ^{vi} - الثقافة العربية وعصر المعلومات ، د/ نبيل علي ، مجلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد : 265 ، يناير ، 2001م ، ص : 130 .
- ^{vii} - المرجع نفسه ، ص : 50 .
- ^{viii} - المرجع نفسه ، ص : 65 .
- ^{ix} - المرجع نفسه ، ص : 473 .
- ^x - المرجع نفسه ، ص : 475 .
- ^{xi} - المرجع نفسه ، ص : 64 .
- ^{xii} - المرجع نفسه ، ص : 470 .